

السيد رشيد رضا

بمناسبة الذكرى التاسعة لوفاته

للأستاذ محمود أبو رية

مما يبعث السرور إلى النفس أن ترى من الناس وفاءً للمصلحين واحتفاءً بذكرى العاملين ، ذلك بأن هذا الوفاء الذي هو أسنى خلال الإنسانية ، إنما يدل ولا جرم ، على أن العقول والأفكار ، قد استمدت لقبول آراء هؤلاء المصلحين وتعاليمهم ، وأن النفوس قد استمدت للأخذ بها واتباع ما تدعوا إليه ...

وإن مما يفتنط له المرء حقاً أن لا تمر الذكرى التاسعة والثلاثون لوفات الأستاذ الإمام محمد عبده هذا العام كما سمت من قبل في سكون ونسيان ، بل رأينا الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية . قد هبت كلها للإشادة بها والإفاضة في بيان فضل صاحبها

ومما زاد في اغتباطنا أن سمعنا لأول مرة في حياتنا صوت الأزهر ينبعث في هذه الذكرى الكريمة بمد أن ظل صامتاً طوال أربعين عاماً ، واضعاً أصابعه في آذانه ، حتى لا يسمع له نصحاً ولا يتبع له رأياً ، مما يجعلنا نستبشر بأن هذه البيئة التي تنكرت لمصلحتها العظيم في حياته ، وازورت عنه بعد وفاته ، قد أخذت تدنو من تعاليمه لتدرسها وتتفجع بها ، وأن من كان فيها من الشيوخ الجامدين والخرافيين ، ومن على شاكلتهم في غيرها من الحشويين والمعوقين ، أولئك الذين تخلفوا عن قافلة الحياة بأفكارهم السقيمة وآرائهم العقيمة ، وكانوا عقبة في سبيل كل إصلاح قد قضى عليهم ولم يبق لهم ولا لأرائهم بين الناس أثر .

لم يجد الأستاذ الإمام في حياته من التنكر له والمكر به والإعراض عنه مثل ما وجد في الأزهر ، ذلك بأنه ما كاد يظهر بما يريد من خير لهذا المعهد الكبير ، حتى هب منه في وجهه فئتان تعارضانه وتصدان عن سبيله : الفقهاء الجامدون ، والشيوخ الخرافيون وقد درسوا في رؤوسهم تعويدات لتحفظاتهم من (عين) الإصلاح

أولاهما : هذا أمر لم تجربه العادة ا

والأخرى : الجمهور على غير ذلك ا

أما الفقهاء ؛ فإنهم قد أبوا إلا أن يظلوا على ما وجدوا عليه شيوخهم ، فلا يدرسون إلا كتبهم ، ولا يتبعون إلا أقوالهم ، حتى لقد بلغ الأمر بأحد كبارهم أن يجار في مجلس إدارة الأزهر الذي يجمع أمثاله بهذه الكلمة الأنيمية « لا يجوز لمسلم أن يأخذ بالحديث ، والواجب أن يؤخذ بكلام الفقهاء ، ومن ترك كلام فقهاء مذهبه للأخذ بحديث مخالف فهو زنديق » ا

ومن إيمانهم في هذا الجرد أن الأستاذ الإمام كان قد رغب إلى الشيخ الإنبائي ، وكان شيخاً للأزهر أن يقرر تدريس مقدمة ابن خلدون بعد أن بين له فضلها ؛ فقال له الشيخ : هذا أمر لم تجربه العادة ا

ولما طالب رضى الله عنه بإدخال علمي الحساب والهندسة في الأزهر عارض شيوخه في ذلك ، وكانت حججهم التي (تمودوا) بها « أن الجمهور على أن هذين العلمين يفسدان العقل ويضيئان الاستعداد لفهم علوم الدين وينبغي عدم تدريسهما » ا

ولقد كان لدرس الأدب في الأزهر ثورة عنيفة ندع الحديث عنها لصاحب « الرسالة » فهو أحق به منا إذ كان من الذين شهدوا هذه الثورة ، ومسهم قرح منها ا

وأما الخرافيون . فبحسبك أن تعرف أن كبار شيوخ الأزهر كانوا يحتفلون في كل عام بمولد الإمام الشافعي ، وكان لهم فيه عادة اسمها (الكنسة) ذلك أنهم كانوا جميعاً يتولون كنس ضريح دفينه الشافعي ، ثم يقسمون هذه (الكناسة) بينهم ليتبركوا بها ثم ينقلون الهامة الوهمية الموضوعة فوق القبر من رأس شيخ إلى رأس شيخ آخر ليقبضوا من أسرارها^(١)

ولعل قراء « الرسالة » لم ينسوا تلك القصيدة التي رفعها أحد المفتين إلى السيد البدوي يشكو فيها شيخ الأزهر ويطلب من (غوث الورى) أن ينتقم له منه ا

(١) من أراد أن يقف على ما كان يجري في هذا (المولد) فيرجع إلى جريدة مصباح الشرق الصادرة في شهر شبان سنة ١٣١٥ أو ليقرأ القصيدة الرائعة التي نشرها الشيخ الشافعي الكبير في كتابه الحماسة السنية

وقد ظلت الحرب بين الأزهر وإمامه مستمرة طول حياته .
وقد مات رضى الله عنه وهو لا يحشى على الدين أحداً غير شيوخ
الأزهر . وفي مرض موته قال أباينا جاء فيها :

ولست أبالي أن يقال محمد أبى أم اكتظت عليه المآثم
ولكنه دين أردت صلاحه أحاذر أن تقضى عليه المهائم
هذا ما كان عليه الأزهر من قبل ؛ فإذا ارتفعت منه اليوم أصوات
تشيد بذكرى الأستاذ الإمام ، وتستهمل بفضله بين الأنام ، فذلك
آية كبرى على أن البيضة الأزهرية قد أصبحت على غير ما كانت
فيه بالأمس ، وأنها قد خرجت إلى النور بعد أن كانت من قبل
في الرمس .

وعلى أننا قد اغتبطنا بهذا المظهر الجديد الذى بدأ فى الأزهر
فإننا قد لاحظنا أن كل الذين احتفوا بذكرى الأستاذ الإمام قد
أهلوا ذكر العلامة المحقق السيد رشيد رضا رحمه الله ، أكبر
تلاميذ الإمام فى حياته ، وحامل رسالته ونائس علمه بعد وفاته ،
وما كان يصح لهم ، وقد دفعهم الحق والوفاء إلى الاحتفاء
بذكرى الأستاذ الإمام أن يدعوا إلى النياحة بذكرى العلامة
الجليل ولا أن يشكروا فضله

وإنما أداء لحق هذا الرجل العظيم الذى لقي من عدم وفاء
المسلمين له ما لقي ، والذى لم يجد أحداً يعنى بتراته أو يحمل
رسالته بعد مماته ، ننهنز فرصة انتضاء العام التاسع على وفاته
لننشر عنه هذه الكلمة القصيرة ، ولعلنا نكون قد أدبنا بها
هذا الفرض الكفائى الذى يلزم المسلمين جميعاً

على أننا لا نحاول اليوم أن نتحدث عن علمه الواسع وفضله
الشامل ، ولا نفيض فى بيان جهاده حوالى أربعين سنة فى سبيل
دينه ، قائماً وحده بهذا الجهاد لا يقتر ولا يبنى ، لا تؤيده حكومة
ولا يسنده منصب ، لأن ذلك يحتاج إلى كتاب برأسه .

وإنما نجتزئ بملحاحات تدل على صلته بالأستاذ الإمام ومكانه
منه ، ونشير إلى بعض ما كمل لتأييد دعوة الحكيمين جمال الدين
ومحمد عبده ، ونشرها بين أرجاء الأرض . ولكى لا يرمينا أحد
بالفلو فى القول أو الإسراف فى الحديث ؛ فقد آثرنا أن نرجع
فى ذلك إلى قول الأستاذ الإمام نفسه فى تلميذه ، فنتناول منه
قبساً ، ونروح إلى ما كتب بعض المستشرقين عن دعوة الإمام
فنتقل عنه ذرواً

فمن قول الأستاذ الإمام لبعض أصحابه ، وكانوا يريدون منه
أن يقضى عنه السيد رشيد : « إن الله يموت لى بهذا الشاب
ليكون مدداً لحيايتى ومزيداً فى عمري ، إن فى نفسى أموراً
كثيرة أريد أن أقولها أو أكتبها للأمة ، وقد ابتليت بما شفاني
عنها ، وهو يقوم ببيانها كما أعتقد وأريد ... وقد رأيت فى سفرى
من آثار عمله وتأثير مثاره ما لم أكن أظن ولا أحسب ، فهو قد
أنشأ لى أحزاباً وأوجد لى تلاميذ وأصحاباً ... الخ . » ، وقال
المغفور له الشيخ محمد شاكر عندما أبلغه إرادة الخديو عباس فى
أن ييمده عنه : « كيف أرضى بإبعاد صاحب المنار عنى وهو
ترجان أفكارى » ، وكذلك قال لبطرس غالى باشا

وقال الدكتور تشارلز آدمس فى كتابه الإسلام والتجديد :
« كان السيد رشيد أكبر تلاميذ الإمام فى حياته ، ومؤرخ سيرته
بعد وفاته ، وهو الذى نشر كتبه وفسر تعاليمه ، وكان من أشد
الناس أخذاً بها وسيراً على سنتها »

وقال : وإن كتاباته لتتم على أنه أخذ بحفظ عظيم فى العلوم
الإسلامية المعروفة ونجد فى نشره لمصنفات أستاذه ، وفيما كتبه
عليها من الحواشي والتعليقات ما يدل على تمكنه من المواضيع التى
يتناولها ، وأعظم ما تبدو كفايته فى علوم الحديث ، وكان لا بد
من أن يبرز رشيد فى هذا الميدان ، وذلك لأن الحركة التى أنشأها
الشيخ محمد عبده علفت أهمية كبرى على السنة الصحيحة وحدها
لتكون مصدراً أساسياً من مصادر الإسلام فى صورته الجديدة «

ثم تحدث عن إنشاء مجلة المنار فقال : « وكانت غاية رشيد
من إنشاء المنار مواصلة السير على نهج العروة الوثقى (١) . وكان
الغرض الذى رعى إليه المنار هو فى الجملة عين ما عملت له صحيفة
العروة الوثقى ، فقد كان من الأغراض التى تضمنتها غايتها
الكبرى نشر الإصلاحات الاجتماعية والدينية والاقتصادية ،
 وإقامة الحججة على أن الإسلام باعتباره نظاماً دينياً لا يتنافر مع
الظروف الحاضرة ، وأن الشريعة أداة عملية صالحة للحكم ، وكان
من أغراضها أيضاً السعى فى القضاء على الخرافات والاعتقادات

(١) هى الجريدة التى أنشأها الحكيمان جمال الدين ومحمد عبده بباريس
لينشر فيها دعوتهما لا يقاط الشرق ولم يصدر منها إلا ثمانية عشر عدداً ثم
صادرهما الاستعمار